القَوْلُ المُبِيْن

فِي أَنَّ عَلامَاتِ السَّاعَةِ مِنْ أُمُورِ الدِّيْنِ

بقلم

الفَقيرِ إلى عفْو مَولاهُ الغنيّ

مُحَمَّد بْن عَلي بْن مُحَمَّد بَاعطيَّة الدُّوعَنيّ

اسم الكتاب:القول المبين في أن علامات الساعة من أمور الدين.

اسم المؤلف: محمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني.

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م

عدد الصفحات: ٢٥ صفـــحة

قياس القطع : ١٢ × ١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي خلق الإنس والجان، وكلفهم بتكاليف؛ تمييزاً لهم عن سائر المخلوقات، وأرسل إليهم الرسل بالبينات الواضحات، وتعبّدهم بدينه، وأظهرها لهم على لسان رسله في كتب أنزلها تنزيلاً، وكان آخرهم المبعوث رحمةً لسائر المخلوقات، وبه ختم الرسالات، وميّز دينه على سائر الأديان، ونسخ به الشرائع والأحكام، فصلاة الله وسلامه على من جعله مسك الختام، سيدنا محمد هادي الأنام، من جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وما خرج من الدنيا إلا وقد بيّن لأمته الملة، وأوضح لهم المحجة، حتى جلاها لهم فتركها بيضاءَ نقيّة، ومن الشوائِب صافيةً بهيّة، أرسى القواعد والأحكام، وبيّن الحلالَ والحرام، فأكمل الدين ووضّحه، وأرسى قواعده وبين أساسه.

فدينه عليه الصلاة والسلام هو الإسلام، وهو مبني على ثلاثة أركان قعّد قواعدها ـ كما أسلفنا ـ سيد الإنس والجان، وهي الإسلام والإيمان والإحسان.

وهو ﷺ ماخرج من الدنيا إلا وقد بيّن هذه الثلاثة

الأركان، التي أولها الإسلام، الذي ثبّت دعائمه، وبيّنه وجاهد في نشره بسيفه، وضحّى بنفسه حتى نشره في الآفاق، وكف يده عمن بأركانه عمل، وقبل منه القول والعمل.

وهذا الركن الأول من الدين بناه صاحب الشريعة على خمسة أركان، فقال عليه الصلاة والسلام: « **بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**» (١).

وقد قام عليه الصلاة والسلام ببيان هذه الأركان، فأوضحها وأصّلها، فأنزل الله تعالى عليه الآيات البيّنات الواضحات المحكمات تبين هذا الركن من الدين المشمول بأركانه الخمسة مع الحث المتواصل في الكتاب والسنة على تبليغ أحكامه واستنباطها وتقعيدها وتأصيلها.

وطلب من أمته القيام بذلك، وخاطبهم ربهم في غير ما آية من كتابه يحثهم على تعلّم ذلك وبثّه وتبليغه، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٢).

(١) متفق عليه.

(٢)سورة التوبة آية (١٢٢).

وقال عليه الصلاة والسلام : «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[1].

ونحن لسنا بصدد بيان فضل تعلم العلم وتعليمه، وإلا فالآيات والأحاديث في بابه كثيرة، وقد قام أصحابه بعده بالتبليغ والإبلاغ، وانتشروا في الآفاق لتبيين تلك الأحكام المناطة بتبيين الركن الأول من أركان الدين علماً وعملاً وتبليغاً، وتلقاه التابعون منهم وقاموا بذلك خير قيام، وهكذا من تبعهم، فقرّروا الأحكام وقعّدوا القواعد، وأصّلوا الأصول، ووضعوا لها الكتب وصنفوا المصنفات.

وسُمِّي ما يتعلق بهذا الركن من أركان الدين علم الفقه وأصوله، فعلم الفقه يبحث في استخراج الأحكام من الأدلة، والأصول يبحث في أصل الدليل، وهذه الثروة العلمية الكبرى في هذا المجال واضحة، وأقلام العلماء في كل العصور تكتب مقررة مُؤَصِّلة ومُقَعِّدة، وكلما استجد أمر وجدوه فيما أصّلوه وقعّدوه.

وشمل علمهم ذلك العلم بمصادر التشريع، فبحثوا في كتاب الله تعالى في آيات الأحكام، واجتهدوا في حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وفنّدوها سنداً من حيث الصحة

---

(١) متفق عليه.

والحسن وغير ذلك، وبنوا عليها الأحكام وشرعوا مسائل الحلال والحرام.

وظهر خلافٌ بين العلماء في ما استنبطوا من المسائل من هذين المصدرين، أو من المصادر الأخرى التي اعتمدوها في فروع الشريعة وكان للخلاف أسبابه ودواعيه.

وكان خلافهم فيه رحمة للأمة وسعة لها، وإسقاط للحرج والمشقة عنها، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1].

ومع ما نشأ بينهم من خلاف في بعض المسائل، إلا أنهم بنوا خلافهم ذلك على احترام الرأي الآخر وقائله، وكانوا يرون أن آراءَهم صوابٌ تحتمل الخطأ، وآراء غيرهم خطأ تحتمل الصواب، فنشأ عند ذلك التحابب بينهم والاحترام، مع ما قد يكون من خلافيات في فروع المسائل.

والأمثلة في هذا المضمار كثيرة جداً، نضرب مثالين يوضحان ما أسلفنا ذكره:

الأول: في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[2]،فقالت الشافعية: المراد بالقرء الطهر، وقالت الأحناف: المراد به الحيض، وسبب

(١)سورة الحج آية (٧٨).

(٢)سورة البقرة آية (٢٢٨).

الخلاف: أن لفظ القرء يحتمل هذا وذاك .

والثاني : ماورد أنه ﷺ «**كُفِّن في ثلاث لفائف بيض سحولية، ليس فيها قميصٌ ولا عمامة**»[1]، قالت الشافعية: يسن تكفين الميت في ثلاث لفائف، ولا يسن أن يلبس الميت قميصاً ولا عمامة؛ للخبر المار: «**ليس فيها قميص ولا عمامة**»، حيث فهموا أن الصحابة لم يلبسوه ﷺ القميص والعمامة مع الثلاث اللفائف.

وقالت المالكية : تسن ثلاث لفائف وقميص وعمامة، وفهموا أنه كُفِّن في ثلاث لفائف ليس فيها قميص وعمامة، أي: ثلاث لفائف غير القميص والعمامة.

* * *

وقد ذكرنا أن اختلافهم رحمة، ويظهر ذلك في مسائلَ كثيرة متعددة في أضرب شؤون الحياة كلها، سواء أكانت في أمور العبادات أو المعاملات أو النكاح وغير ذلك.

ونضرب على هذا مثالين نبيّن فيهما مدى عظمة الرحمة في اختلافهم في فروع الشريعة :

الأول : وقت الرمي في أيام التشريق، **فإن للأئمة فيه آراء**: منهم من ضيّق ومنهم من وسّع.

(١) رواه البخاري .

فالرأي الأول: أن وقت الرمي لأيام التشريق يبدأ في كل يوم من زوال شمسه وينتهي بغروبها، فلو كان هذا القول معتمد أهل العلم قاطبةً لأصبح الحج يشتمل على مجازرَ تزهق فيها أنفسٌ كثيرة مع ماهو مشاهدٌ من توافد الحجاج بمئات الألوف، حيث لو حصرناهم في هذا الوقت لأدّى لما لا يُحمد عُقباه.

لكن قد يأخذ البعض منهم بهذا القول فيخرج بين هذين الوقتين، ويأخذ الآخرون **بالقول الثاني** وهو: أن وقته من زوال شمس يومه إلى طلوع الفجر، فتكون فسحة للآخرين، ويأت آخرون من الحجاج فيأخذون بالقول بأن وقته يدخل من بزوغ فجره إلى آخر أيام التشريق، فانظر هنا إلى مدى الرحمة في اختلافهم.

والمثال الثاني: النقض بلمس المرأة الأجنبية من غير حائل، وجملة الأقوال فيها ثلاثة، **الأول**: ينقض بمجرد لمسها، **والثاني**: ينقض إذا كان بشهوة، و**الثالث**: لا نقض بلمسها، وفيه فسحة لمن ابتُلي بالمعاملة مع النساء، كالأطبّاء والممرّضين وغيرهم، وكذلك في أماكن الازدحام كالطواف ونحوه إذا حصل اللمس.

والحاصل: أن الأئمة عنوا بمسائل الخلاف في فروع الشريعة، وألّفوا في ذلك المؤلّفات إما تبعاً وإما استقلالاً،

مع كون الأئمة في هذه المسائل يستندون إلى أدلة تستند إلى مصادر التشريع التي ذكرناها، فما من إمام منهم يقول بمسألة إلا وله مستندٌ شرعيٌّ أو تعليلٌ فقهيٌّ يستند إليه.

وقد وضعوا مصنفاتهم على ثلاثة أقسام في هذا المضمار لكي يتدرجوا بدارس هذا الركن من أركان الدين، وهو الإسلام الذي عنى بالشرائع والأحكام في الأخذ تلقياً للعلم من صغيره إلى كبيره، فألفوا مؤلّفات حوت أحكاماً خاليةً عن الدليل والتعليل، إذا فهمها الطالب ودرسها ارتقَوا به إلى كتب عنت بالدليل، فإذا ارتقى الطالب في دراستها ارتقوا به إلى كتب تعني بالدليل والتعليل، فإذا انتهى من ذلك أتوا له بقول المخالف ودليله والرد عليه؛ تبحّراً في هذا الفن، واستظهاراً لمسائله، وسموا ذلك بالفقه المقارن .

ومن هنا يُعلم أنه ما من قول لإمام متبوع من أئمة الدين المعتبرين إلا وله مستندٌ شرعيٌّ ـ كما بيَّنَّا ـ إلا أنه قد يذكر في كتاب ولا يذكر في غيره لما أسلفنا.

وقد ابتلى الله الأئمة بسفهاء الأحلام حدثاء الأسنان، فأنكروا ـ وهم المنكر ـ على أئمة الدين، وشنّعوا ـ وهم الشناعة في حد ذاتها ـ على علماء المسلمين، بأنهم اخترعوا أحكاماً ومسائلَ لا مستندَ لها ولا دليل، وهم في الحقيقة

ليسوا أهلاً لمعرفة نصوص العلماء في كتبهم فضلاً عن إثبات مواقع الأدلة في كتبهم؛ لأنهم من العلم في معزل، إذا خبرت أحدهم لا تجده قرأ كتاباً على أحد من أهل العلم يُعتد به.

وحاصل ما عندهم ضلالات ارتأوها أو حماقات ارتكبوها، أحدثوا بها فوضى في مجتمعات المسلمين، وفرقة وتخريباً، نتج عنه إضلال وضلال لأبناء المسلمين، خاصةً الناشئة منهم فعمّت الفرقةُ بلدانَ المسلمين، وخدموا الأعداء، وجعلوا المسلمين أحزابًا، وصنفوهم أصنافاً، رمَوْا أولئك بالبدعة، وهؤلاء بالكفر، ونتج عند ذلك التفجير والقتل، واختل الأمن في ربوع بلدان المسلمين، وساعد أولئك الغزاة من الكفار من الصليبيين والمجوس وغيرهم، جلبوهم لبلاد المسلمين لاختلالها، وهم من وراء ذلك، والتاريخ يعيد نفسه.

ولكن لا نقول إلا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]؛ لأن اختلال المجتمع بإبعاد الناشئة عن العلماء الربانيين وعن الموجهين المسلكين المربين هو غاية آمال أعداء الإسلام الذين لم يستطيعوا أن يتوصّلوا إليه، ولكن توصّلوا إليه عبر هؤلاء الذين زرعوهم في المجتمعات نبتة خبيثة

(١) سورة البقرة آية (١٥٦).

يكون بها الفساد والإفساد والضلال والإضلال .

فعلى الناشئة والعقلاء في سائر المجتمعات أن يلتقصوا بأهل العلم الذين لهم تأصّلٌ واتصالٌ بأئمة الدين من الأئمة المتبوعين، كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد في أحكام الدين والشريعة، وكالإمام أبي الحسن الأشعري، والإمام أبي منصور الماتريدي في العقيدة والاعتقاد، وكالجنيد والشبلي والجيلاني والفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي ونحوهم من أهل السلوك والإرادة؛ ليصح للمرء أركان دينه الثلاثة باتصاله بأهل العلم في هذا المضمار.

❊ ❊ ❊

أما الركن الثاني من أركان الدين فهو الإيمان، ومعنى الإيمان: الاعتقاد الجازم، وقد عنى القرآن الكريم والسنة المطهرة على لسان الرسول الأمين ﷺ بغرس أركان الإيمان ومطالبة المكلف بمعرفتها في نصوصهما، وهذا الركن له ستة أركان قال الله تعالى موضحاً لها: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ

(١) سورة البقرة آية (١٧٧).

وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

والآيات في هذا الباب كثيرة، وأما أحاديثه ﷺ في هذا الباب فكثيرة أيضاً قد علمهم ﷺ هذه الأركان وعرّفهم إياها، وأوضحها لهم وأمرهم بإبلاغها لمن بعدهم، فبلّغ الصحابةُ ذلك لمن بعدهم وهكذا من بعدهم موضّحين ومصنّفين في هذا الركن من أركان الدين، فكتبوا فيه كتبَ العقديّات التي بيّنوا فيها أركان الإيمان الستة، وشملوا هذه الكتب، وأوسعوا الإيضاح فيها.

فما يشتمل على الإيمان بالله تعالى وصفاته سمّوه بالإلهيات: أثبتوا فيها لله تعالى الصفات الواجبة له والمستحيلة عليه والجائزة في حقه، ثم النبوات، وهي: الصفات الواجبة للأنبياء والمستحيلة عليهم والجائزة في حقهم، ومعرفتهم، ثم السمعيات، وهي: الإيمان بالملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى.

وأوضحوا ما يجب على المؤمن اعتقاده، ثم لما كثر الداخلون في الإسلام بعد انتشاره فدخل من دخل من الناس وعندهم بقية عقائد من أديانهم التي استقوها،

(١) سورة البقرة آية (٢٨٥).

فلما نظروا إلى ما عند المسلمين من أدلة قامت عندهم شُبه أشكلت عليهم، أو مشكلات في نصوصهم بسبب عدم فهمهم للسان العربي، فبسطوا شبههم وطرحوا مشكلاتهم على بساط البحث عند أهل العلم، فشمّر العلماء في الرد عليهم وفي إيضاح ما اشتبه وأشكل عليهم، وأعادوا الحق إلى نصابه وإن طال الجدل في بعض المسائل.

وهناك أقوامٌ دخلوا في الإسلام لا لأجل الدخول فيه حباً وكرامة وإنما للكيد والنيل منه، فدسُّوا له الدسائسَ كيداً منهم للإسلام وأهله وقالوا بالمقولات من تشبيه وتجسيم وتعطيل في صفات الخالق سبحانه وتعالى و غير ذلك من أمور العدل والتوحيد .

فانبرى لهم أهل العلم موضّحين ذلك، وكثُر التصنيفُ والردُّ في هذا المجال، واستخلص العلماء العقائد الصافية للمسلمين، ما بين مبسوط ومختصر ومنظوم ومنثور؛ حفاظاً على أن لا يزيغ زائغٌ، ولا يهلك هالكٌ من أبناء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

❊ ❊ ❊

وأما **الرّكن الثالث** من أركان الدين وهو: الإحسان، وقد كان عليه الصلاة والسلام جُلّ أوقاته يغرس ذلك في نفوس أصحابه يزكّيهم ويطهّرهم من مدنّسات النفس، ورذائل الأخلاق، ويرتفع بهم إلى أعلى درجات الطهر والتطهير حتى قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أي: التي تبيّن ركنين من أركان الدين وهي الإيمان والشرائع والأحكام، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[1]، وهي الركن الثالث من أركان الدين، وهو الإحسان وهو: تزكية النفوس وتطهيرها وتصفيتها، وقد سعى إلى ذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام في سائر توجيهاته وفي أكثر خطبه؛ لغرس هذا الركن المهم من أركان الدين، وهو الإحسان الذي هو التزكية والسلوك، والذي بعد ذلك سُمِّي بالتصوف من الصفاء وسمُوِّ الروح.

فأحواله ﷺ وأفعاله كلُّها تزكيةٌ للنفوس وتطهيرٌ لها من الرذائل، وتزهيدٌ في الدنيا وابتعادٌ عن شهواتها المباحة، وقد اكتسب ذلك الصحابة منه، فساروا بما اكتسبوه من صفات وأخلاق نمت عندهم وتجذرت في نفوسهم، بسبب التربية التي رباهم عليها النبي ﷺ، فحملوا هذا

(١) سورة الجمعة آية (٢).

الركن وبلغوه؛ تعريفاً بالأقوال وعملاً بالأفعال، التي ترجمتها الأخلاق والسيرة التي ساروا بها وغرسوا في نفوس من تلقاها عنهم ممن أتى بعدهم.

وهكذا بقي هذا العلم يتلقى كما كان هناك في الركن الأول والركن الثاني ثم كان التقعيد والتأصيل بجعل الكتب له كما أسلفنا، وكذلك هنا لما فشا في الناس خلاف هذا الركن من التوسع في المباحات، ثم بعد ذلك تنافس في الدنيويات، ثم الوقوع في الشهوات انبرى العلماء لذلك الأمر نصحاً وإرشاداً وبياناً وتبييناً، وكتبوا فيه الكتب التي تحدُو بالأرواح إلى طريقها المستقيم، وتزكو بالأنفس إلى تطهيرها من درَن الأخلاق المذمومة والصفات المرذولة. وسُمُّوا بالصوفية وكتبهم بكتب التصوف، كما أن القائمين على الركن الأول هم علماء الشريعة، سُمُّوا بعد ذلك بالفقهاء، وكتبهم بكتب الفقه، والقائمين على الركن الثاني من أركان الدين سُمُّوا بالمتكلمين، وكتبهم بكتب الكلام، وعلى كل حال فلا مشاحة في اللفظ؛ لأن كل ذلك أتى به صاحب الشرع ﷺ .

وقد حفظ علماء السلوك والإرادة هذا الركن من أركان الدين وهو: الإحسان، فألّفوا فيه وكتبوا وأرشدوا المريدين وربّوهم وسلّكوهم وحفظوا الأمة من طغيان

الماديات والإيغال في الحسيات والانهماك في الشهوات والوقوع في براثنها، فحفظوا للأمة الوسطية وهي التوازن، فلا رهبانية ولا مادية.

والحاصل: إن الإحسان كله إخلاص في سائر وجوه الأعمال، قال تعالى:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[1]، والدين هو الذي يشمل الإسلام والإيمان والإحسان .

وبهذا نكون قد أوضحنا أن الدّين الذي حمله النبيﷺ وأرسى دعائمه وقعّد قواعده، هو المشتمل على هذه الثلاثة الأركان التي ينبني عليها وجوب المعرفة من كل مكلف لها، واعتنى بها العلماء ـ كما أسلفنا ـ تأليفاً وتبسيطاً وتوضيحاً لإبلاغ الأمة بما يجب أن يدينوا الله تعالى به، حيث إنه يتفرع على ذلك عند الجهل بهذه الثلاثة الأركان جملة، أو الجهل ببعضها تفصيلاً أي ما اشتمل عليه كل ركن من الأركان اختلال في دين ذلك المتدين قد يؤدي إلى كفره.

وزيادة في الإيضاح والتوضيح والمعرفة والاهتمام لهذه الأركان شملها حديث جبريل عندما أتى إلى النبي ﷺ يسأله، ونص الحديث عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله

(١)سورة البينة آية (٥).

عنه ـ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال :يامحمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ :«**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**»، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «**أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العُراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان**»، ثم انطلق فلبث مليًّا، ثم قال: «**يا عمر أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[(١)].

(١) رواه مسلم .

وفي حديث جبريل هذا سؤالٌ عن أركان الدين يلفت بها نظر الصحابة ومن بعدهم، حيث قرّر لهم هذه الثلاثة الأركان، فقد سأله في أولها عن الركن الأول وهو الإسلام فقال: « **أخبرني عن الإسلام**»، والمراد: أخبرني عن ماهية الإسلام التي يجب أن يعلمها المكلف ويعمل بها، ويكون بها مسلماً فكأنه قال في الإجابة: إذا توفرت عنده خمسة أركان، وقد عدها ﷺ بقوله: «**أن تشهد أن لا إله إلاالله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتيَ الزكاةِ، وتصومَ رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» .

ثم بعد أن يكون الإنسان حقق الركن الأول من أركان الدينِ وهو الإسلام، وبه كان مسلماً، ولا يكون بذلك مؤمناً إلا إذا توفرت فيه دواعي الإيمان، فقال له: أخبرني عن الإيمان، والمراد: عن ماهيته التي يكون بهاٍ الإنسان مؤمناً أيضاً، فكأنه قال له: إنه لا يكون مؤمناً إلا إذا توفرت فيه ستة أركان وهي ما عددها له ﷺ .

وهكذا كان السؤال عن الإحسان، فقال له: «**أخبرني عن الإحسان**»، وكأنه قال له: أعلمني متى يكون الإنسان محسناً؟ فأجابه: بأنه إذا توفرت فيه أركانه التي ذكرها عليه الصلاة والسلام .

بهذه الثلاثة الأركان يكون الإنسان متديناً بدين الإسلام حيث جمع أركانه، فإذا أسلم وآمن وأحسن فإنه لاشك ولا ريب أنه ينتظر جزاء العمل الذي وعد عليه بالثواب الأخروي؛ لأنه علم من الإيمان أن حياته دنيوية، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الحياة الأخروية، فإذا تحقق بذلك اشتاق إلى ما هنالك.

وكأن جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يعلمان الأمة بأنهم إذا أقاموا أركان الدين انتظروا الجزاء الأوفر من الله تعالى، فاشتاقت نفوسهم لذلك، فمن قامت عنده هذه الدواعي كأنه هكذا يقول: فمتى تكون الساعة؟ أي: وقوعها وحصولها؛ لكي أفوز بما وعدت به.

وفيه إشارة أيضاً لمعنى آخر، وهو: أنه من كان فيه قصور أشفق من وقوع الساعة، فإشارة لهذين المعنيين قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : أخبرني عن الساعة، ومعناه: أعلمني بوقت وقوع الساعة .

فسؤاله هنا عن متى وقوع الساعة، لا عن ماهية الساعة ـ أي: حقيقتها ـ أي: ما يكون فيها من بعث وجزاء وحساب وسؤال ومساءلة، وغير ذلك من فناء الدنيا وقيام الناس لرب العالمين، وانتهاء مرحلة الدنيا والإقبال على الدار الآخرة، وما فيها من خروج الناس

من برازخهم إلى غير ذلك؛ لأن ذلك قد قرر في الإيمان باليوم الآخر، ولو كان قد فهم النبي ﷺ من السؤال عن الساعة حقيقتها التي ذكرناها لذكر ذلك وهو لايجهله، وحاشاه وقد علمه وقرّره وعرفه أمته، وهو من ضروريات الإيمان.

فكان السؤال هنا موجهاً لمعنى آخر، وهو: أخبرني عن متى وقوع الساعة، كأنه قال: التي يرتجيها المؤمن لنيل الثواب، ويشفق منها غيره؛ لما فيها من أهوال، أو لمعنى آخر، وهو : أن السؤال عن متى وقوع الساعة، والجواب عنه من علم الغيب، فكأنه قال لأمته: لا تسألوا عنه؛ لأنه لايعلمه إلا الله، لذلك قال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

وهو كذلك فإنه من الأمور التي لا يعلمها إلا الله، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾(١).

وقد حصل السؤال عن وقوعها أيضاً من قبل المعاندين له عليه الصلاة والسلام الشاكين في الانتقال إلى الدار الآخرة، وقد أخبر بذلك القرآن في غير ما آية كما في

(١)سورة لقمان آية (٣٤).

قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[١] أي: متى وقوعها وحدوثها، فرد الله عليه بقوله: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾[٢] أي: أنت غني عن الاستفادة من معرفة وقت وقوعها؛ لأنه لا نفع في ذلك؛ إذ أنت مكلف للعمل والاستعداد لها، وأن وقت الوقوع لا يعلمه إلا هو؛ لذلك قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾[٣] أي: وقت وقوعها ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾[٤]، أي: يخشى وقوعها.

ويدل أيضاً على أن المراد بالسؤال عن الساعة أي: وقت وقوعها عدوله إلى قوله: «**فأخبرني عن أماراتها**»، أي: الأمارات التي تدل على قرب وقوعها فأعلمه ببعض الأمارات.

ومن هنا يظهر: أن حديث جبريل شمل أركان الدين الثلاثة؛ لأنه أتى السؤال عن حقيقة أو ماهية كل ركن من أركانه، ولما لحديث جبريل من أهميةٍ لاشتماله على أركان الدين الثلاثة اعتنى به العلماء إفراداً بالتصنيف والشرح، وأخذوا منه ومن غيره من الأدلة الواردة في الكتاب والسنة أيضاً هذه الثلاثة الأركان لدين الإسلام وما اشتملت عليه من أركان، حيث لا بد أن يعرفها المكلف،

(١) سورة النازعات آية (٤٢).
(٢) سورة النازعات آية (٤٣).
(٣) سورة النازعات آية (٤٤).
(٤) سورة النازعات آية (٤٥).

ويعرف أركان كل ركن مع تحققه بها؛ لكي يكون مسلماً مؤمناً محسناً متديناً بدين الإسلام .

حيث إنه إن لم يكن قد اشتمل ظاهره وباطنه على هذه الأركان أو أنقص منها ركناً أو ترك من واحد منها ركناً لا يكون من أهل دين الإسلام .

ثم أيُّ فائدة محصلة من معرفة علامات قرب وقوع الساعة بالنسبة للمكلف من حيث زيادة إيمانه أو دينه أو نقص ذلك طالما أنه قد أمر بالعمل بما أتى في أركان الدين.

❊ ❊ ❊

ومنه يُفهم: أن علامات الساعة وتعدادها ومعرفتها ليست من أركان الدين حيث إن المكلف لو لم يعرفها أو بعضاً منها أو جهلها ونفى بعضها أو لم يؤمن بها لا يكون خارجاً عن دين الإسلام، ولم يكفر بذلك، حيث لم يقل أحد من السلف ولا من الخلف بذلك البتة.

عكس من نفى ركناً من أركان الدين أو ركناً من أركان أركانه فإنه يحكم عليه بالارتداد والكفر.

والسبب في ذلك يعود إلى أمور :

أولها : أن بعض البعض من الشيء لا يكون ركناً في ماهيته، فإن الإيمان باليوم الآخر والذي فيه قيام

الساعة وما فيها من عذاب وأهوال ركنٌ من أركان الإيمان، والإيمان ركنٌ من أركان الدين فلا يستقيم عقلاً أن يكون الإيمان باليوم الآخر ركناً من أركان الدين؛ إذ هو بعض ركن من أركانه فضلاً عن أن يكون معرفة علامات قرب وقوع ذلك الركن ركناً فيه.

ثانيها: أننا إذا قلنا أن معرفة علامات الساعة ركنٌ من أركان الدين لأدّى ذلك إلى كفر من لا يعرف هذه العلامات، ولا قائلَ بذلك من أهل العلم - كما أسلفنا-، ولأدّى ذلك أيضاً إلى معنى خطير: حيث إن جميع من سبق من أهل العلم ومن الأمة لم يعدُّوها ركناً رابعاً من أركان الدين. والركن: جزءٌ من الماهية لا تتحقق الماهية إلا به، فعليه : فإنَّ من تقدم حيث لم يقولوا بركنيته يعدون بأنهم لم يأتوا بماهية الدين كاملة، فما الحكم عليهم يا ترى عند القائل بركنية الأمر الرابع ؟!..

ثالثها: لايقال إن حديث جبريل شملها فكانت ركناً لما قدّمناه، ولأنّه إنّما ذكرها هنا إما استنهاضاً بأن من قام بأركان الدين انتظر الجزاء ولا يكون إلا في الآخرة إذا قامت القيامة، أو لأنه ذكّرهم بها إشفاقاً لما يكون فيها وأدعى إلى إتقان أركان الدين، فإنه ما من أحد إلا وهو مشفقٌ من الساعة وما فيها من أمور.

رابعها: إنما ذكرها لإعلامهم حقيقة مهمة، وهي أن علم وقوع الساعة لا يعلمه لا نبيٌّ مرسل ولا ملك مقرّب ، ويدل عليه قوله ﷺ : «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، وأن غاية مايعلمونه هو بعض من العلامات الدالة على قرب وقوعها.

خامسها: لو كانت علامات الساعة من أركان الدين التي تجب معرفتها على كل مكلف لما اقتصر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ذكر بعضها وترك البعض الآخر كما أتت به الروايات الأخر، وإلا ..لكانت أيضاً العلامات التي هي ركنٌ من أركان الدين مقتصرة على هذه العلامات فقط، ولايقول به أحدٌ من أهل العلم .

سادسها: لو كانت علامات الساعة من أركان الدين لقال عليه الصلاة والسلام : «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أركان دينكم»، لكنه جاء يعلمهم أركان الدين وغيرها مما ليست من أركانه، فقال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم**» على رواية (أمور)، وعلى رواية أخرى: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»، أي: ما اشتمل عليه الدين من أركانه وغيرها.

❋ ❋ ❋

وإنما كتبت هذا؛ تبييناً للصواب، ولما يترتب على القول بأن معرفة علامات الساعة ركنٌ من أركان الدين من تكفير وغيره؛ لأن الجهل بأسس العقائد مضر غاية الضرر كما يقرره علماء هذا الفن، فلو قلنا بأن أركان الدين أربعة بإلحاق علامات الساعة بها لأدّى ذلك إلى ما ذكرنا من محظور، ولقلنا بما لم يقله السلف ولا الخلف، وكان أيضاً لا بُدّ لنا من ضبط هذه العلامات التي ينبغي على القول بكونها ركناً على مكلف معرفتها.

❊ ❊ ❊

وخاتمة المطاف: إن كتب العقائد لأهل الإسلام طافحة بذكر ما يجب اعتقاده ومعرفته على كل مكلف، ولم يذكروا علامات الساعة بأنها ركن من أركان الدين.. البتة.

والله الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قاله وكتبه : محمد بن علي بن محمد باعطية

يوم الجمعة بتاريخ ٢٢/ ٥/ ١٤٢٨هـ